مسار التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو: مراجعة، واستخلاص للخبرات، واستشراف

تشوانغ زييه، فان يويه، تشنغ رو شيوان، تسوي قوانغ شون

الملخص. بوصفها مدينة محورية في منطقة خليج قوانغدونغ–هونغ كونغ–ماكاو الكبرى، تحمل ماكاو تاريخًا حضريًا غنيًا يمتد قرونًا عدة. وقد درست البحوث القائمة تطورها الحضري من زوايا متعددة، منها النظام السياسي، والفضاء الحضري، والبناء، والتخطيط، غير أنها لم تبرز بما يكفي الدور التأسيسي الذي أداه نقل نظام التخطيط الحضري البرتغالي إلى ماكاو. وباستخدام أداة التصور «النهر الموضوعي»، يرسم هذا البحث مسار التطور الحضري في ماكاو بين عامي 1845 و2022، ويقسمه إلى خمس مراحل: مرحلة تطبيق الحكم الاستعماري، ومرحلة ترسيخ الحكم الاستعماري، ومرحلة تطور المنطقة المحايدة، ومرحلة الحكم الذاتي الإقليمي الواسع، والمرحلة الجديدة لمبدأ «دولة واحدة ونظامان». وتبين الدراسة أن التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو تشكل عبر ست منطقات مترابطة: تغير السكان بوصفه انعكاسًا للتقلب السياسي؛ توسع الأرض بوصفه سجلًا لتطور النسيج الحضري؛ القواعد القانونية بوصفها ضمانًا للتنمية المنظمة؛ تحول الأهداف الحضرية من المبنى المفرد إلى التكامل الإقليمي؛ التحسن المستمر في جودة البيئة القائمة؛ والتخطيط الاستشرافي المبني على استباق الطلب. وتخلص الدراسة إلى أن تجربة ماكاو تتضمن قدرات مهمة، منها تحويل التقلب إلى اختراقات تنموية، ومنع تأجيل التناقضات وتصلبها، وتوجيه التنمية عبر تحسين اللوائح، والتركيز على حدود البناء المقيدة، وتدقيق التوجه نحو الطلب، وتطبيق تخطيط استشرافي مرحلي. وتوفر هذه الخبرات مراجع تاريخية ونماذج تنموية وآفاقًا مفيدة لفهم منطق تطور مدن أخرى.

الكلمات المفتاحية: تاريخ التخطيط الحضري؛ التحضر الحديث؛ ماكاو؛ النهر الموضوعي

تصنيف المكتبات الصينية: TU984. رمز الوثيقة: A. DOI: 10.16361/j.upf.202503014. رقم المقال: 1000-3363 (2025) 03-0110-09.

التمويل: المشروع العام للمؤسسة الوطنية الصينية للعلوم الطبيعية «بحث في أساليب التجديد لتحسين الجودة الشاملة وسلامة المناطق السكنية القائمة في جنوب الصين استنادًا إلى تحليل متعدد العوامل» (رقم 52178020)؛ البرنامج الوطني الرئيس للبحث والتطوير في الخطة الخمسية الرابعة عشرة «التقنيات والمعدات الرئيسة للتنمية الحضرية المستدامة»، الموضوع 1: «نظريات وآليات جديدة للتصميم الحضري الذكي والتكيفي متعدد المقاييس في سياق التجديد الحضري» (رقم 2024YFC3807900).

بدأ البناء الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو عام 1845، حين استولت البرتغال على السلطة الإدارية. وعلى هذه الرقعة المحدودة تراكمت، عبر قرون، آثار الحكم الاستعماري والحكم الذاتي، فامتلكت ماكاو خصائص مميزة في مجالات الرقابة الحكومية، وتدفق رأس المال، وتحسين البيئة، وحماية التراث، والرفاه الاجتماعي، والصحة العامة، والوقاية من الكوارث[1]. وباعتبارها نقطة التقاء مفتوحة بين التجارة والثقافة الشرقية والغربية، دخلت ماكاو بعد عودتها إلى الصين دورة جديدة من التطور. وقد اقترحت الدراسات القائمة[2-5] منطقًا متنوعًا لتقسيم تطورها الحضري، وأشارت مرارًا إلى ضعف التخطيط وسهولة اصطدام التنمية بالقيود. ومن ثم يراجع هذا البحث مسار ماكاو الحضري الحديث والمعاصر، ويكشف منطقه العميق ونقاط الاختراق فيه، ثم يستخلص خبرتها التاريخية في التنمية.

1 تاريخ التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو

تناول عدد كبير من الباحثين تطور ماكاو الحضري من منظورات منطقية مختلفة، مستعينين بالتاريخ لفهم الحاضر، ومركزين على النظام السياسي، والفضاء الحضري، والبناء الحضري، وأفكار التخطيط[6].

1.1 التقلب السياسي والاختراقات المتعددة

وصف لو شنغهوا[7] حكومة ماكاو البرتغالية بأنها تتسم بخصائص «الحوكمة الضعيفة»: الحكم عبر عدم التدخل، ومحدودية الفعل، وتبسيط الأهداف، والضبط الاجتماعي غير المباشر. وقد جعلت هذه السمة التطور الحضري في ماكاو شديد الحساسية؛ ففي ظل التغيرات الخاصة في البيئة السياسية أظهرت المدينة تحولات مرحلية واضحة في الرقابة والتجارة والسكان.

تكشف تطورات السيطرة في ظل الإدارة الصينية–البرتغالية المنقسمة كيف أثرت قوى مختلفة في التنمية من خلال صراعات المصالح، مما أدى إلى طرح نموذج «نواة مزدوجة وثلاث جماعات، مع تعايش الجماعتين الصينية والبرتغالية»[8-9]. وعلى هذا الأساس قسّم الباحثون تطور ماكاو إلى أربع مراحل: المدينة الكاثوليكية (1557-1840)، والتنمية الاستعمارية (1840-1911)، وتحسين التنظيم (1911-1974)، والتخطيط الذاتي (1974-1999)[6,9-12]. وتظهر هذه الدراسات الطابع العام للتطور في ظل امتداد الحكم الاستعماري من شبه الجزيرة إلى كامل الإقليم. ومع أنها تأخذ تأثير نظام التخطيط البرتغالي في الاعتبار، فإنها لا تفسر بما يكفي أسباب تغير التخطيط والرقابة وتحسنهما خلف السياسات الاستعمارية[6,10].

تأثر الاقتصاد والتجارة بعوامل خارجية، ومنها السياسات العالمية①، وبجماعات خاصة مثل التجار الصينيين. وقد غيرت هذه القوى تركيبة رأس المال الصيني والأجنبي وتركيبة السكان، ودفعت ماكاو إلى التحول من مجتمع تقليدي قائم على الصيد والزراعة إلى مجتمع تجاري حديث[8,13-14]. وفي هذه العملية ساعدت الجماعات الصينية على نقل قيمة ماكاو من التجارة إلى الدبلوماسية، وأصبحت حلقة وصل بين التنمية الصينية والبرتغالية. وقد حفزت المصالح الاقتصادية والسياسية الناتجة تدفقات السكان والنمو الحضري[14-16]. ووصف تطور ماكاو في خضم التقلب السياسي بأنه تشابك بين الاشتراكية والاستعمار والرأسمالية ومخططات التنمية؛ وفي تصادم هذه الأفكار المتعددة حققت المدينة اختراقات متواصلة تجسدت في تغيراتها المكانية[17].

1.2 الفضاء الحضري وتثبيت الحقوق العقارية بالقانون

يتسم الفضاء الحضري في ماكاو بحدود الجبل والبحر وبالبناء الكثيف. ويمكن للتوسع السريع أن يضر بالمناظر التقليدية، ويعمق التناقض بين السكان والأرض، ويؤدي إلى عدم توازن الخدمات العامة، فيخفض قابلية المدينة للعيش. ويظهر ذلك في تطور الشكل المكاني القائم على ردم البحر واستصلاح الأرض[18-19].

استنادًا إلى محطات استصلاح الأرض التي حددها هوانغ شيشينغ، مثل عامي 1912 و1936، وصف باحثون[20-24] تشكل مساحة اليابسة في ماكاو عبر أربع مراحل: الاستكشاف البنائي (1557-1840)، والتوسع الاستعماري بالاستصلاح (1840-1974)، والتنمية الذاتية المستقرة (1974-1999)، والبناء السريع بعد العودة إلى الصين (1999 حتى اليوم). وقسّم لي تشينرو[25] العملية أيضًا إلى استصلاح الميناء الداخلي الغربي وشمال شبه الجزيرة (1850-1912)، واستصلاح شرق وشمال شبه الجزيرة (1912-1936)، ثم استصلاح كوتاي لاحقًا. وأكد تشن مينغفا وآخرون[26]، في دراستهم للأسطح غير المنفذة② في ماكاو، أن التطور المكاني الناجم عن الاستصلاح اتخذ بعد عام 1990 مسارًا جديدًا؛ إذ لم تعد شبه الجزيرة قادرة على التوسع، فبدأت التنمية تنتقل إلى تايبا وكولوان والمناطق الجديدة.

وعززت الحكومة أيضًا الرقابة القانونية على الأرض، ولا سيما حماية حقوق الملكية. وقد أثّر تطور نظام الملكية في البناء والتنمية في كل مرحلة من مراحل ماكاو. درس تشن جياهوي[27] تأثير القوانين التي صاغتها البرتغال وطبقتها في ماكاو في التشريع العقاري، بينما حلل ليو يونغده[28] أسباب الصعوبة الخاصة المرتبطة بـ«Sa Zhi Qi»③. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين[29] يرون أن القيود القانونية أعاقت التجديد الحضري الحالي④، فإن أثر الرقابة القانونية في منطق التطور الحضري لم يوضح بعد بصورة كاملة.

1.3 البناء الحضري والتداخل الصيني–الغربي

حلل مو شياويه[30] البناء الحضري من خلال السجلات المحلية المصورة، ولخص سماته في تحسن النقل، وزيادة المباني ذات الطراز الغربي، وارتفاع المباني تدريجيًا. وعدّ قوه شولينغ[31] عام 1888 نقطة مهمة في البناء المبكر للطرق. وعلى هذا الأساس درس فنغ تشن وآخرون[32] تغيرات الشوارع في أعوام 1834 و1889 و1952 و2010، ووصفوا العملية بأنها تطور منظم نحو الانفتاح والتوسع والكفاءة والترابط. كما أدى ازدياد الكثافة إلى انتقال المركز الحضري. وقد وُصف هذا التحول بأنه امتداد ديناميكي نحو الخارج يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتقلب السياسي والتنمية المكانية، مشكلًا حزامًا هامشيًا مفردًا (1840-1911)، ثم مزدوجًا (1912-1980)، ثم ثلاثيًا (1980 حتى اليوم)، وكاشفًا انتقال نماذج البناء من «المباني التذكارية والشوارع المستقيمة» إلى «نواتين وثلاث مناطق»، والتنمية الرعوية، و«نموذج الميناءين»[33-36].

أثرت الفروق بين هذه النماذج في بناء المباني وتحولها في الفترات المختلفة[37-38]. ووجدت تشاو شوهونغ[39] أن مواد البناء انتقلت من الخشب والطوب إلى الحجر والخرسانة، وأن تنظيم المباني انتقل من البنية المنفردة إلى المجموعات المعمارية المركبة. وأضاف باحثون لاحقون[40-42] ثلاث مراحل: الركود (1930-1960)، والسرعة العالية (1970-1980)، والتأمل (1980 حتى اليوم). وفي هذه المراحل بدأت المباني تتجه إلى الحداثة، وأصبحت الوظيفة وعملية الفضاء الداخلي أكثر أهمية من الشكل والإبداع الشكلي. وقد ربط هذا التطور المعماري بين بيوت المتاجر من نمط «أنبوب الخيزران»، والعمارة البرتغالية، والمساكن البسيطة، والأبراج الحديثة، مشكلًا مشهدًا شوارعيًا مميزًا[43-44].

تأثرت خصائص البناء في ماكاو بنماذج المدن الأوروبية الوسيطة. ورغم أن الزمن طمس ملامح كل مرحلة، فإن آثارها ما زالت تظهر في القواعد التي اتبعتها المناطق المختلفة[45-46]. وقد استخدمت الحكومة التصحيح والتخطيط لدفع التكامل الإقليمي، غير أن التنمية ظلت تواجه عقبات متعددة، منها تضارب الأفكار الصينية والغربية، وانقطاع نظام التخطيط، ونقص موارد الأرض، وصعوبات تجديد الأحياء القديمة[47-50].

1.4 أفكار التخطيط والتقدم المنسق

رأى قوه تشان[51] أن التراث العالمي يشكل أساس التخطيط في ماكاو. غير أن ون يا[52] وجدت أن أفكار التخطيط بعد عام 1963 تطورت عبر الاعتماد على توجيه الحكومة، والاستكشاف التشريعي، والتحسين التدريجي. وقد دفع هذا التحول الباحثين إلى التفكير في التنمية من أبعاد متعددة.

وعلى أساس تحسين البيئة والتنمية الاقتصادية، قسّم يانغ يان[4] تطور ماكاو إلى: تحديد حدود جديدة (1845-1867)، وتحسين البيئة (1867-1918)، والتحضر السريع (1918-1942)، والتنمية البطيئة (1942-1956)، والتجميل الشامل (1956-1975)، وتنمية المناطق

الجديدة (1975-1998)، والتخطيط الإقليمي (1998-1999)، مع دراسة تفصيلية للتطور المورفولوجي ولتركيب الشوارع. أما تشنغ جياني[3]، مركزًا على الميناء الداخلي، فقد استخدم السياسة والاقتصاد والجغرافيا والخرائط لتقسيم المنطقة إلى التكوين الأولي (1557-1840)، والتكوين (1841-1900)، والتحول (1901-ثمانينيات القرن العشرين)، والانحدار (ثمانينيات القرن العشرين حتى اليوم).

في السنوات الأخيرة أصبح التجديد والتعاون الإقليمي موضوعين رئيسين. فقد رأى ياو تشيهاو وآخرون[5] أن مفاهيم التجديد تطورت من التوجه بالمشكلة، إلى التنسيق التشريعي، ثم إلى البناء المؤسسي. ودرس تشاو سونغجيه[53] تحول شبه الجزيرة بعد عام 1880، واقترح نموذج تحول متعدد المراحل والمناطق يحافظ على العادات المحلية. وقسم ليو مينشي[2] المشاركة العامة إلى مرحلة الجنين (قبل 1999)، ومرحلة التجريب (1999-2016)، ومرحلة التنفيذ (2016 حتى اليوم). ولخص جينغ تاو[54] تطور منطقة قوانغدونغ–هونغ كونغ–ماكاو الكبرى في مراحل: التنمية المتتابعة (قبل 1949)، والعزلة المتبادلة (1949-1978)، و«المتجر في الأمام والمصنع في الخلف» (1978-1999)، والتعاون العميق (1999 حتى اليوم). وبالنظر إلى آليات التعاون العابرة للحدود وتدفقات السكان، تحتاج ماكاو بصورة ملحة إلى تعميق مسارها في التنمية المنسقة داخل منطقة الخليج الكبرى، وبناء آليات إقليمية متعددة المستويات لربط السياسات، وتسريع دوران عناصر التنمية في الدورة الجديدة[19,55-56].

1.5 مراجعة مقارنة

بالتركيز على البناء والتنمية الحضريين في ماكاو منذ عام 1845، حين أعلنت البرتغال ماكاو من جانب واحد «ميناءً حرًا»، وحتى صدور قانون التجديد الحضري عام 2022، وبالجمع بين التقسيمات القائمة على النظام السياسي والفضاء والبناء وأفكار التخطيط، يتبين أن الباحثين يعترفون عمومًا بمحطات مثل احتلال كولوان عام 1911، والخطة العامة لماكاو عام 1912، وخطة ازدهار ماكاو عام 1948، وثورة 25 أبريل عام 1974. ويرى بعضهم أيضًا أن خطة التصحيح الشامل لماكاو عام 1979 وأنشطة إعادة تطوير الأحياء القديمة تمثل علامات على التوسع الحضري وتحسين البيئة.

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين[3-4] لاحظوا أن التخطيط الحديث في ماكاو امتلك خصائص نموذجية للمراكز التجارية الأوروبية التقليدية، وتأثر إلى حد ما بالنموذج البرتغالي للتخطيط، فإن هذا التأثير لم يدمج في التقسيمات المرحلية القائمة. وتفتقر هذه التقسيمات إلى قابلية تعميم كافية، ولا توضح الخصائص المميزة والمنطق العميق لتطور ماكاو في مراحله المختلفة. لذلك يقترح هذا البحث تقسيمًا مرحليًا جديدًا للتنمية في ماكاو، من أجل تحليل مسارها الحضري الحديث والمعاصر واتجاهها المستقبلي بدقة أكبر.

2 تقسيم مراحل التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو

2.1 اختيار الشؤون الحضرية

يعتمد هذا البحث إطارًا مرجعيًا رئيسيًا هو «بحث في مخطط التخطيط الحضري لماكاو في القرن الحادي والعشرين»، الذي أُعدّ في وقت انتقال السيادة عام 1999. كما يستند إلى مواد تخطيطية أساسية مثل «القانون البلدي لمجلس بلدية ماكاو» و«الخطة الحضرية العامة لمنطقة ماكاو الإدارية الخاصة (2020-2040)». وتقسم الشؤون الحضرية إلى 21 فئة: اللوائح، النظام السياسي، التخطيط، العلاقات الخارجية، الرقابة، السكان، الأرض، التجارة، الضرائب، الإسكان، النقل الداخلي، النقل الخارجي، البيئة الجغرافية، الإعلام، حماية التراث الثقافي، الفضاء العام، الخدمات العامة، البنية التحتية، السياحة، الرفاه، والصحة العامة والوقاية من الكوارث[57]. وترتبط هذه الشؤون ارتباطًا وثيقًا بالتنمية، كما يظهر في التنفيذ الدقيق لمخططات الحكومة وفي تحسين السياسات وفق التغذية الراجعة من الجمهور. وبالاستناد إلى الدراسات القائمة والمواد التاريخية الخاصة بماكاو⑤ جُمعت قرابة 1800 مسألة مرتبطة بالتنمية الحضرية بين عامي 1845 و2022[3-4,31,33,58-61].

2.2 ترميز اتجاهات الشؤون وتنظيمها

إن ترميز اتجاهات الشؤون وتنظيمها يحول، في جوهره، المحتوى النوعي إلى مؤشرات كمية عبر بيانات نصية منظمة، فيوفر إطارًا إجرائيًا لتحليل التطور التاريخي. أولًا، تُحدد الأوصاف النصية وتُعطى قيمة بحسب درجة ارتباطها بفئة معينة؛ فإذا تضمن النص بوضوح محتوى مرتبطًا بالفئة أعطي القيمة 1، وإلا أعطي القيمة 0. ثانيًا، تُجمع قيم جميع الشؤون في سنة معينة للحصول على المجموع السنوي لكل فئة. ثالثًا، تُحسب قيم الاتجاه مرة أخرى على هذا الأساس لإنتاج بيانات الاتجاه السنوية. ومن خلال التحليل المنهجي للشؤون السنوية بين 1845 و2022، تُستخلص في النهاية بيانات اتجاهات الشؤون السنوية في ماكاو ضمن البعد الزمني الحديث والمعاصر.

2.3 تقسيم مراحل التنمية

يتيح مخطط «النهر الموضوعي» إظهار التغيرات الديناميكية للأحداث عبر الزمن بصورة بصرية مباشرة. فهو لا يوضح مسار تطور الشؤون فحسب، بل يساعد أيضًا على تحديد العوامل الرئيسة المؤثرة في تطورها. كما يتيح مقارنة العلاقات المتبادلة والتغيرات النسبية بين موضوعات متعددة، كاشفًا اتجاهات تذبذبها.

لُخصت بيانات اتجاهات الشؤون السنوية بين 1845 و2022 ورُسمت في مخطط اتجاهات للشؤون المفردة بأسلوب النهر الموضوعي [الشكل 1(أ)]. ويمثل المحور الأفقي الزمن، بينما يمثل المحور الرأسي نسبة فئات الشؤون المختلفة عند كل لحظة. ويظهر المخطط أن شؤون التطور الحضري في ماكاو أصبحت مع مرور الوقت أكثر شمولًا وتوازنًا، لكنه لا يكشف بوضوح منطق التطور الحضري.

وبما أن فئات عدة من الشؤون غالبًا ما تعمل معًا لتوجيه تحسين جانب معين من التنمية الحضرية - مثل مشكلات الأرض، وتحسين الإسكان، والتجديد الحضري، وتحسين النقل - فقد رُمزت هذه الشؤون المركبة ورُسم مخطط اتجاهاتها [الشكل 1(ب)]. ويكشف ذلك أن ماكاو أولت اهتمامًا متزايدًا للتنمية الحضرية المتكاملة، مع نمط واضح يتناوب بين «الصعود» و«الاستقرار».

كما تتسم الشؤون بدرجة من التأخر؛ فالسياسات الصادرة في سنة معينة قد تدفع البناء في سنوات لاحقة فقط. لذلك، عند تحديد نقاط التحول التي تتغير عندها اتجاهات الشؤون المركبة بوضوح وربطها باتجاهات الشؤون المفردة، اختار البحث مسبقًا الشؤون ذات الصلة. وقد حدد خمس محطات في تاريخ ماكاو الحديث والمعاصر: استيلاء البرتغال على سلطة الحكم عام 1845؛ تطبيق القانون المدني البرتغالي في ماكاو وصياغة لوائح خاصة عام 1879؛ تطور ماكاو بوصفها منطقة محايدة خلال حرب المحيط الهادئ عام 1941؛ تنفيذ سياسات إزالة الاستعمار في ماكاو بعد ثورة 25 أبريل البرتغالية عام 1974؛ وعودة ماكاو إلى الصين عام 1999 وتنفيذ مبدأ «دولة واحدة ونظامان». وعلى هذه الأساس يقسم التطور الحديث والمعاصر لماكاو إلى خمس مراحل: مرحلة تطبيق الحكم الاستعماري البرتغالي (1845-1879)، ومرحلة ترسيخ الحكم الاستعماري القائم على النظام القانوني البرتغالي (1880-1940)، ومرحلة تطور المنطقة المحايدة وسط اضطرابات الحرب (1941-1973)، ومرحلة الحكم الذاتي الإقليمي الواسع تحت تأثير سياسة إزالة الاستعمار (1974-1999)، ومرحلة التطور الحضري الموجه بمبدأ «دولة واحدة ونظامان» وبناء منطقة الخليج الكبرى (1999 حتى اليوم).

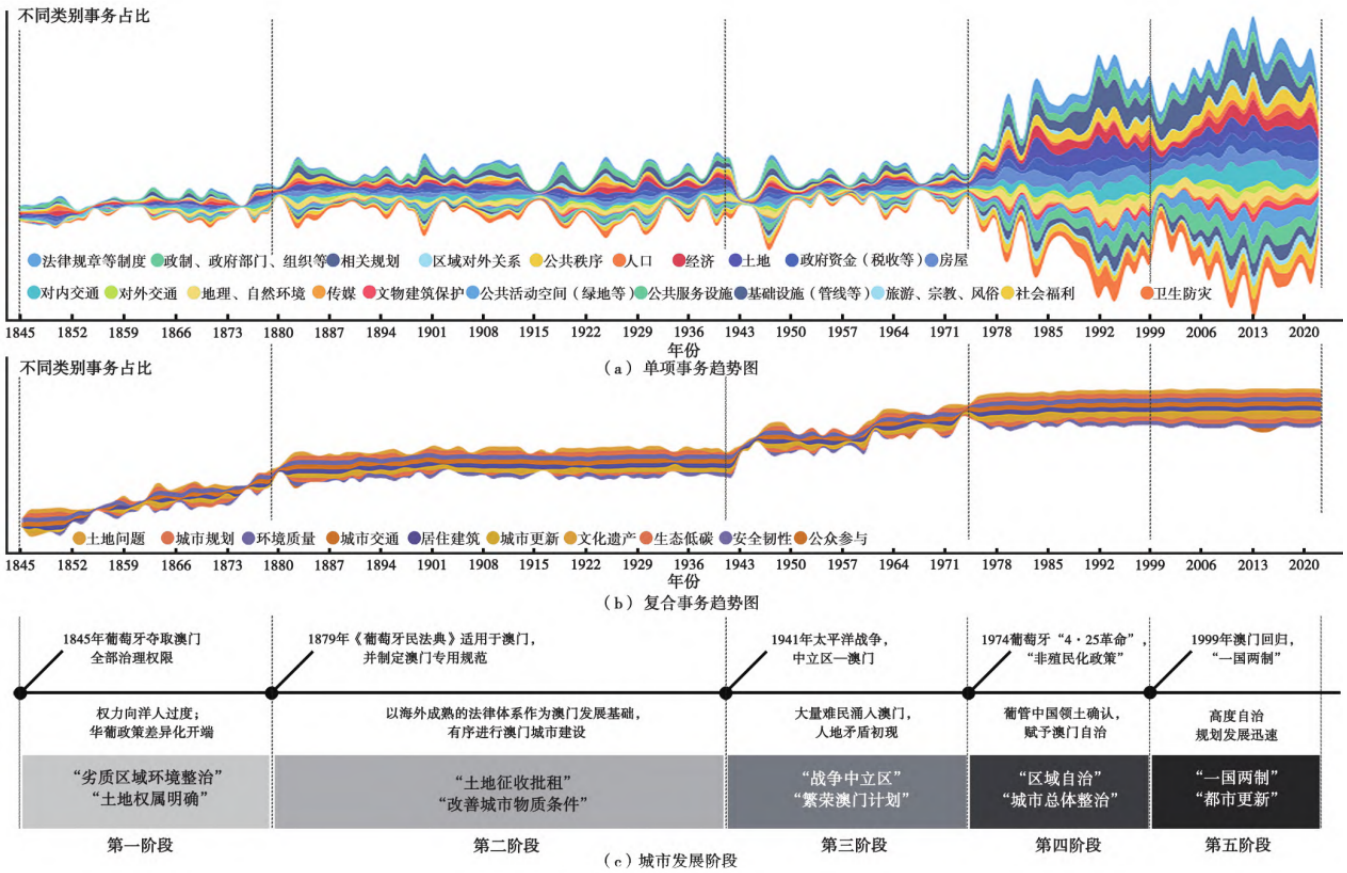

الشكل 1 مراحل التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو

2.4 عرض موجز لمراحل التطور الحديث والمعاصر في ماكاو

2.4.1 مرحلة تطبيق الحكم الاستعماري البرتغالي (1845-1879)

في ظل سياسات استعمارية مثل «تصحيح البيئات الإقليمية الضعيفة» و«توضيح ملكية الأرض»، استولت الحكومة على الأراضي وخصصت ما حصلت عليه أولًا للبناء الحضري. ولم تكن السياسات المتعلقة بشؤون محددة مثل الصحة العامة⑥ والطرق والمباني قد تشكلت بعد بصورة نظامية، لكنها حسّنت شروط المعيشة، وعالجت مشكلات تشتت الحقوق العقارية، وضعف الترابط الإقليمي، ونقص الغطاء النباتي، وسوء

النظافة، كما أوضحت أن البناء الحضري والمعماري ينبغي أن يتبع متطلبات التخطيط والبناء. وعلى الرغم من أن هذه السياسات بدت وكأنها تحسن بيئة السكان، فإنها مهدت أيضًا لامتيازات البرتغاليين. وللمرة الأولى حُددت هيئة البناء عبر الرسومات، مع مراعاة التضاريس والتخضير ونسبة الشوارع والأزقة، وبذلك توضحت معايير البناء.

2.4.2 مرحلة ترسيخ الحكم الاستعماري القائم على النظام القانوني البرتغالي (1880-1940)

بتأثير النظام القانوني البرتغالي الناضج، أنشأت حكومة ماكاو البرتغالية إطارًا قانونيًا وتنظيميًا للبناء ملائمًا لماكاو، وأصبح هذا الإطار أساسًا للوائح والسياسات اللاحقة ومرجعًا مهمًا للتشغيل والإدارة. وفي هذه المرحلة اتسم التصحيح والتخطيط بطابع حل المشكلات. فقد عززت سياسات مثل «نزع الملكية وتأجير الأرض» و«تحسين الشروط المادية الحضرية» الحكم الاستعماري، وقوت إدارة ملكية الأرض، ورفعت جودة معيشة السكان. وتولت إدارة الأشغال العامة مسؤولية جميع المباني والأعمال العامة. واقترحت الحكومة حساب كثافة السكان على مستوى القطعة، وبناء الطرق والمساحات الخضراء والمباني والقنوات بالتتابع، واستخدام المخططات للحد من هيئة المباني. واعتُبر التخطيط مفيدًا للصحة العامة؛ أما المباني التي تعيق التنمية فينبغي شراؤها وهدمها، ويمكن تمويل التجديد جزئيًا من عائدات اليانصيب. وقد عُممت حالات التصحيح الناجحة لتحسين شروط المعيشة، مما مثّل المرحلة الجنينية للتخطيط والبناء في ماكاو.

2.4.3 مرحلة تطور المنطقة المحايدة وسط اضطرابات الحرب (1941-1973)

دفعت الحروب في المناطق المجاورة أعدادًا كبيرة من اللاجئين إلى ماكاو بوصفها منطقة محايدة. وأصبحت الأوضاع الاجتماعية المضطربة، والبناء الحضري، والصحة والسلامة العامة تحديات رئيسة. وفي بدايات هذه المرحلة ونهاياتها ظهرت حالة من عدم الاستقرار الحكومي والاضطرابات، وشهدت المدينة تطورًا فوضويًا بل ومظاهر مضادة للتحضر، مع أنشطة بناء كثيرة تجاهلت الرقابة الحكومية. وقد دفع هذا الضغط الحكومة إلى تبني تدابير استباقية واستشرافية في التخطيط والحوكمة. فأعيد تنسيق الإدارات لصياغة خطط تنموية أكثر اكتمالًا، واقتُرحت استراتيجيات لقضايا التراث والنقل، وأطلقت «خطة ازدهار ماكاو» و«حركة تجميل المدينة». وأصبح مخطط محاذاة الشوارع ونظام الإسكان العام سابقين لمعايير البناء الحالية ولنظام الإسكان العام. ونُظمت إعادة بناء المباني وصيانتها، واستمر تحسين الطرق والبيئة، وظهرت عمليات إعادة بناء إقليمية شاملة وتعديلات واجهات بدأها المالكون. غير أن الخطط واللوائح كانت استجابات للطوارئ أكثر من كونها أجزاء من نظام متماسك.

2.4.4 مرحلة الحكم الذاتي الإقليمي الواسع تحت تأثير سياسة إزالة الاستعمار (1974-1999)

تحت تأثير نهاية المرحلة الثالثة وسياسة إزالة الاستعمار البرتغالية، عادت أنشطة التخطيط والبناء إلى طبيعتها وتطورت بصورة كاملة. وفي ظل الحكم الذاتي الإقليمي الواسع، تحسن نظام البناء الحضري ودُفع «التصحيح الحضري الشامل». وحسّن البناء واسع النطاق شروط المعيشة؛ كما أدت قواعد أكثر اكتمالًا لتخصيص المساكن وبنائها إلى ذروة في نشاط البناء. وأنشئت مجموعات عمل لدراسة الإسكان والنقل والمرافق، واستخدمت وسائل التخطيط والتنظيم لمعالجة قضايا الأرض والنقل والسكن. وقد وضعت فكرة تقسيم المناطق بحسب شروط تطورها وخصائصها المعمارية أساس الاستراتيجيات اللاحقة للتنشيط الإقليمي. كما دُفعت فكرة الإدارة الذاتية للإسكان عبر توضيح حقوق الأرض، ونطاقات إدارة الصحة، والحوافز الضريبية.

2.4.5 التطور الحضري في ظل «دولة واحدة ونظامان» وبناء منطقة الخليج الكبرى (1999 حتى اليوم)

بعد تنفيذ مبدأ «دولة واحدة ونظامان» و«إدارة ماكاو من قبل أهلها» بدرجة عالية من الحكم الذاتي، دُفعت نظم التخطيط والتجديد عبر التشريع والتنظيم الحكومي للاستجابة لحاجات الأرض والنقل والمباني والبيئة. وتولي هذه المرحلة أهمية خاصة للتقنيات المهنية مثل التخطيط، وتحسن السياسات واللوائح في كامل عملية التنمية، من التخطيط العام، والتنشيط الإقليمي، والوقاية من الكوارث، إلى تشييد المباني، واستخدام المواد، وإعادة التدوير. كما وفرت منطقة خليج قوانغدونغ–هونغ كونغ–ماكاو الكبرى منصة واسعة لتطور ماكاو. وقد عزز اتفاق إطار التعاون بين قوانغدونغ وماكاو التنسيق في تطوير المناطق الجديدة وتحسين البيئة[62-64]. وبالإضافة إلى ذلك، رفعت معالجة النفايات التعاونية والتعاون في خفض الكربون في قطاع البناء متطلبات أعلى أمام البناء والتجديد الحضري المستقبلي في ماكاو[65].

3 تحليل تطور مسار التنمية الحضرية في ماكاو

استنادًا إلى الدراسات القائمة واتجاه تطور الشؤون (الشكل 2)، يحلل هذا البحث ستة مسارات رئيسة للتطور الحضري: التقلب السكاني، وتوسع الأرض، والضمانات التنظيمية، والأسس المعمارية، وتحسين الجودة، واستبصار الطلب.

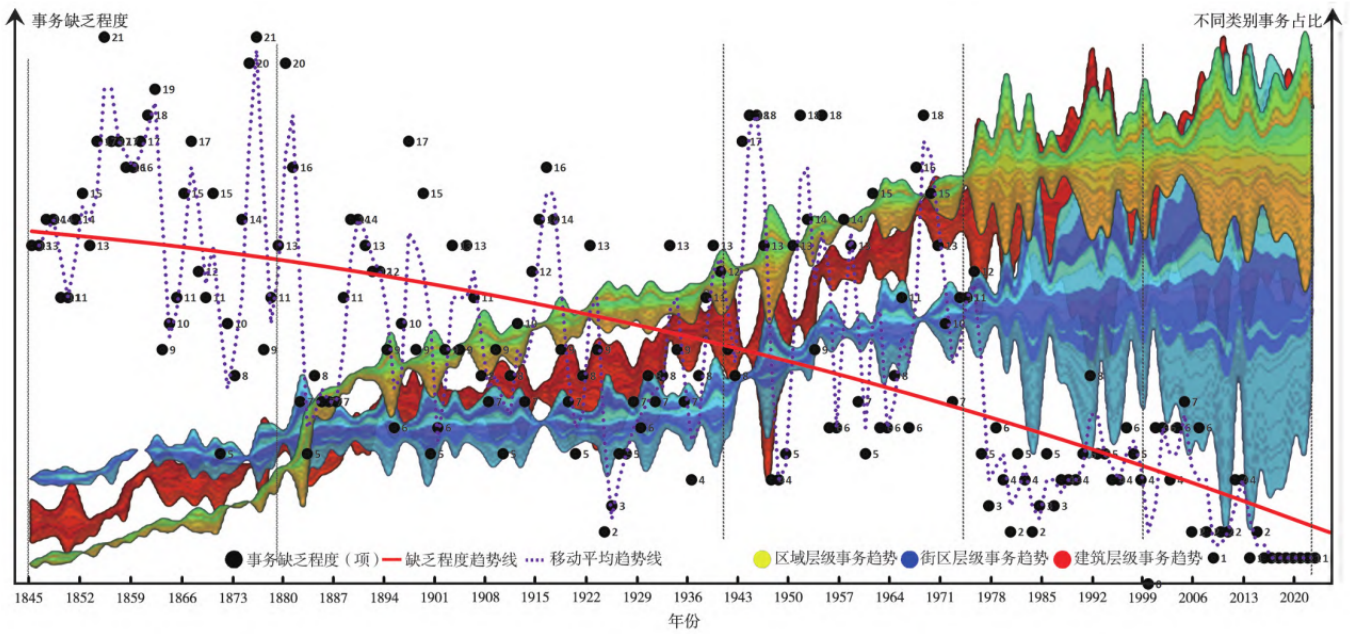

الشكل 2 اتجاه تطور الشؤون الحديثة والمعاصرة في ماكاو

3.1 تغير السكان بوصفه انعكاسًا للتقلب السياسي

تتجلى العلاقة الجوهرية بين التقلب السياسي والتطور الحضري في الديناميكية السكانية. فاعتمادًا على بيئة سياسية واجتماعية مستقرة نسبيًا، شكلت ماكاو آلية مميزة لاستيعاب السكان، ويؤكد تغير السكان العلاقة الإيجابية بين الاستقرار السياسي وقابلية العيش (الشكل 3). ففي المرحلة المبكرة ضمت الحكومة البرتغالية السكان الصينيين إلى نطاق سيطرتها من خلال احتلال الأرض، لكن الزيادة السكانية الجوهرية بدأت خلال فترات الحرب في المناطق المجاورة. وباعتبارها منطقة محايدة، أصبحت ماكاو ملاذًا للنازحين، وتوسعت مناطق الأكواخ في شمال شبه الجزيرة بسرعة لاستيعاب السكان[31]. وعلى الرغم من أن هذا النمو غير المخطط زاد الضغط على الخدمات، فقد حفز بصورة غير متوقعة توقعات مثل «خطة ازدهار ماكاو». وبعد حادثة «3 ديسمبر» عام 1966 ضعف التحكم الحكومي، وخلق التطور الحضري الأكثر حرية جاذبية سكانية جديدة. وبعد عام 1974 أتاح الحكم الذاتي الإقليمي المنظم والتعاون بين الحكومة والجمعيات الصينية نموًا سكانيًا أكثر تنظيمًا.

اليوم لم يعد التقلب السياسي يظهر بالشكل نفسه، لكن التغيرات السكانية ذات السمات الجديدة تعيد تشكيل مسار المدينة. ومن أمثلتها انتقال السكان من المدن المجاورة خلال الجائحة، والتغيرات البنيوية في الأحياء القديمة نتيجة تأخر التجديد. وتعكس هذه التغيرات تحولات في قيمة الأرض وأشكال النشاط الاقتصادي، وتتجسد أيضًا في القدرة الاستيعابية الكاملة للمرافق العامة[68]. ففي النهار تخدم هذه المرافق السكان المحليين، وفي الليل تصبح فضاءات اجتماعية للعمال غير المحليين. وتولد الديناميات السكانية الجديدة مطالب لاستخدامات أرض مركبة، وتنتج تحديات حوكمة مثل الاندماج المجتمعي، لتصبح بعدًا مهمًا من أبعاد التنمية المرنة.

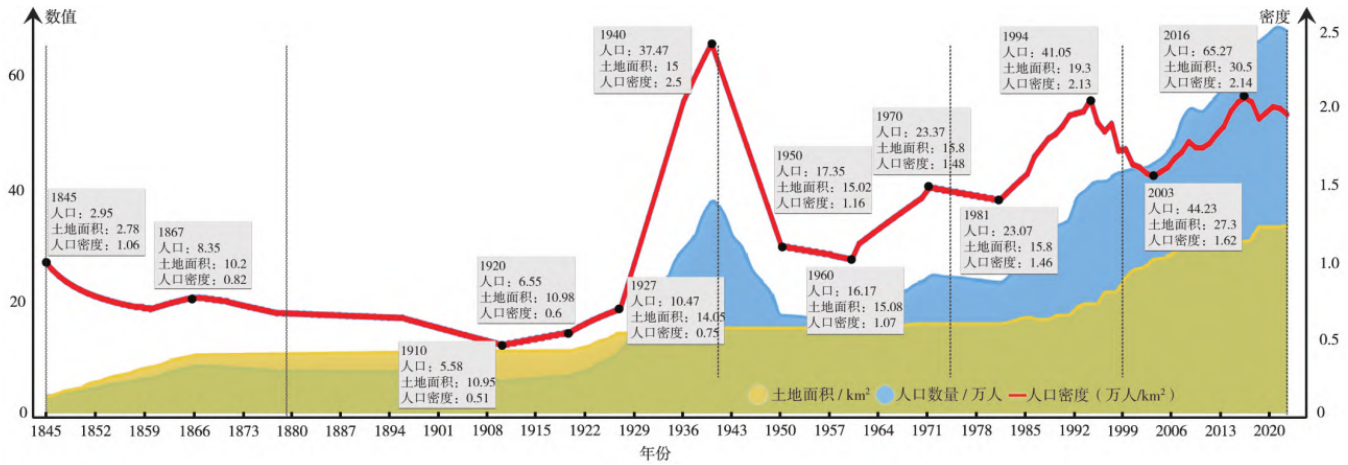

الشكل 3 اتجاه تغير كثافة السكان في ماكاو

3.2 توسع الأرض بوصفه مسارًا لتطور النسيج الحضري

يُظهر تطور النسيج الحضري مسار تنمية ماكاو: نواة المدينة القديمة، واستصلاح الأرض، وتمديد الطرق. فقد امتلكت المرحلة الثالثة أوسع مساحة حضرية، بينما اتجهت المرحلة الرابعة إلى البناء الحشوي، وأنتجت المرحلة الخامسة مظهرًا حضريًا أكثر تنوعًا. وبعد أن تبلورت شبكة الطرق في المرحلتين الأوليين، واصلت التحسن؛ فهي سرعت التوسع الحضري، لكنها أصبحت في الوقت نفسه قيدًا على النمو المكاني[32].

لم يكن نقص الأرض حاضرًا دائمًا في تطور ماكاو. وتظهر بيانات كثافة السكان (الشكل 3) أن العلاقة بين السكان والأرض انتقلت من تناغم نسبي إلى صراع، لكن الخلل الحاد ظهر عندما تجاوز نمو السكان عرض الأرض بكثير. وقد شهدت ماكاو ثلاث ذرى تاريخية في كثافة السكان، كشفت كلها عن عجز موارد الأرض في فترات معينة عن تلبية حاجات التنمية الحضرية وحياة السكان.

وعلى الرغم من أن استصلاح الأرض خفف التناقض بين العرض والطلب، فإن نموذج التنمية المعتمد فقط على التوسع الخارجي غير مستدام. وينبغي لماكاو أن تنتقل من التوسع إلى الخارج إلى الاستخدام الداخلي الشامل، وأن ترفع قيمة استخدام الأرض القائمة وفائدتها الكلية.

3.3 ضمان التنمية عبر سلطة القواعد القانونية

كان تطبيق القانون المدني البرتغالي عام 1879 منعطفًا حاسمًا في تطور ماكاو، ويتضح ذلك خصوصًا في تغير درجة نقص الشؤون (الشكل 2). فقد انتقلت الحوكمة من غياب الإدارة النظامية للشؤون إلى إطار ونموذج لمعالجة الشؤون تحركهما قواعد القانون المدني وأفكار التخطيط. ورغم الاضطرابات الاجتماعية، جعل اكتمال اللوائح وسلطتها المتزايدة ضبط الشؤون الحضرية أكثر شمولًا ومهنية، ووسّع نطاقها بصورة كبيرة.

لم توضح اللوائح ذات السلطة آفاق التنمية الحضرية فحسب، بل حفظت أيضًا بفعالية نسيج الأحياء القديمة وطابعها المعماري (الشكل 4). وعززت الحكومة كذلك الوعي العام عبر قنوات متعددة، مما حسّن فاعلية الحوكمة. وينبغي عند صياغة اللوائح مراعاة التنسيق بين القوانين المختلفة لضمان انسجام النظام القانوني. وبهذا فقط يمكن تجنب مشكلات مثل سحب لوائح إعادة تطوير الأحياء القديمة⑦.

3.4 الأسس المعمارية وتحول أهداف البناء الحضري

يُظهر البناء في ماكاو خصائص تطور على مستويات المبنى والكتلة والمنطقة (الشكل 2). فقد بلغ مستوى المبنى ذروته مبكرًا وظل محور اهتمام، واستمر في التحسن خلال المرحلتين الرابعة والخامسة. أما المستوى الإقليمي فكان مهيمنًا في الوسط، بينما نما مستوى الكتلة بسرعة في المرحلة اللاحقة. ويتجسد هذا النموذج القائم على المبنى في إجراءات ضبط بناء شاملة وصارمة ضمن تمايز إقليمي (الشكل 4)، مثل إدارة المنشآت غير المرخصة⑧، وتحديد مناطق عازلة للأحياء التاريخية، ومناطق ضبط ارتفاع المباني[69-70]. وخلال تجديد المباني وإعادة بنائها، لا تخضع المشروعات لرقابة صارمة من مكتب الأراضي والأشغال العامة والإدارات الأخرى فحسب، بل يحتاج بعضها أيضًا إلى آراء الجهات الثقافية، مما يزيد تعقيد التعاون بين الإدارات[70].

أصبح تنشيط الكتل وتحسين المناطق تدريجيًا محورين بحثيين، ويواجهان مطالب تحسين متعددة الأبعاد ومركبة، غير أن كليهما ما زال مقيدًا بالمباني القائمة. ويمكن للضبط الصارم للبناء أن يوفر أساسًا مستقرًا للتنمية اللاحقة، لكن الإفراط في الشمولية يمكن أن يعرقل التطور. وعلى الرغم من تغير أولويات البناء بمرور الزمن، ينبغي الاعتراف بالدور التأسيسي للعمارة، وتمكين تجديد القيمة المكانية ضمن قيود التنمية.

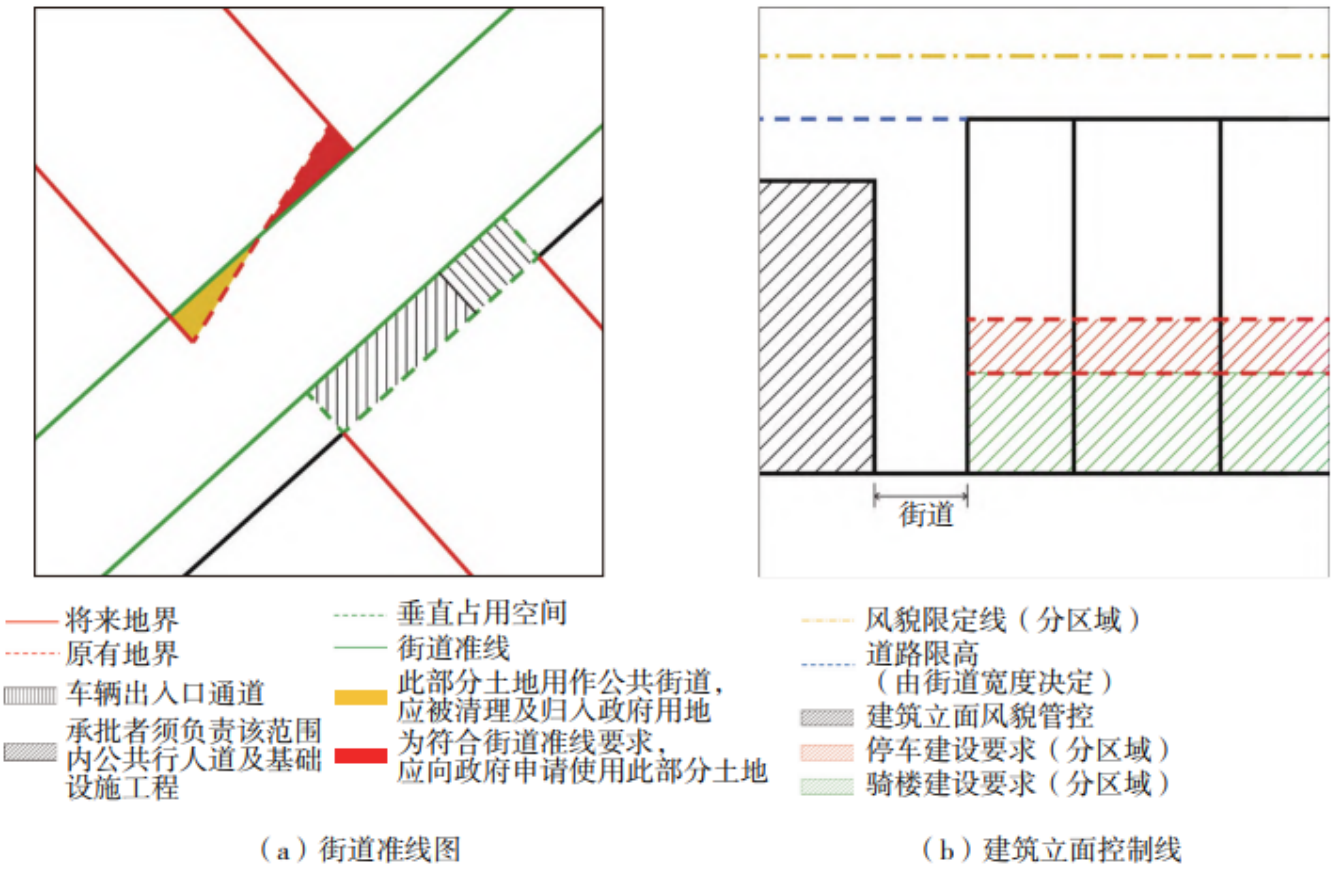

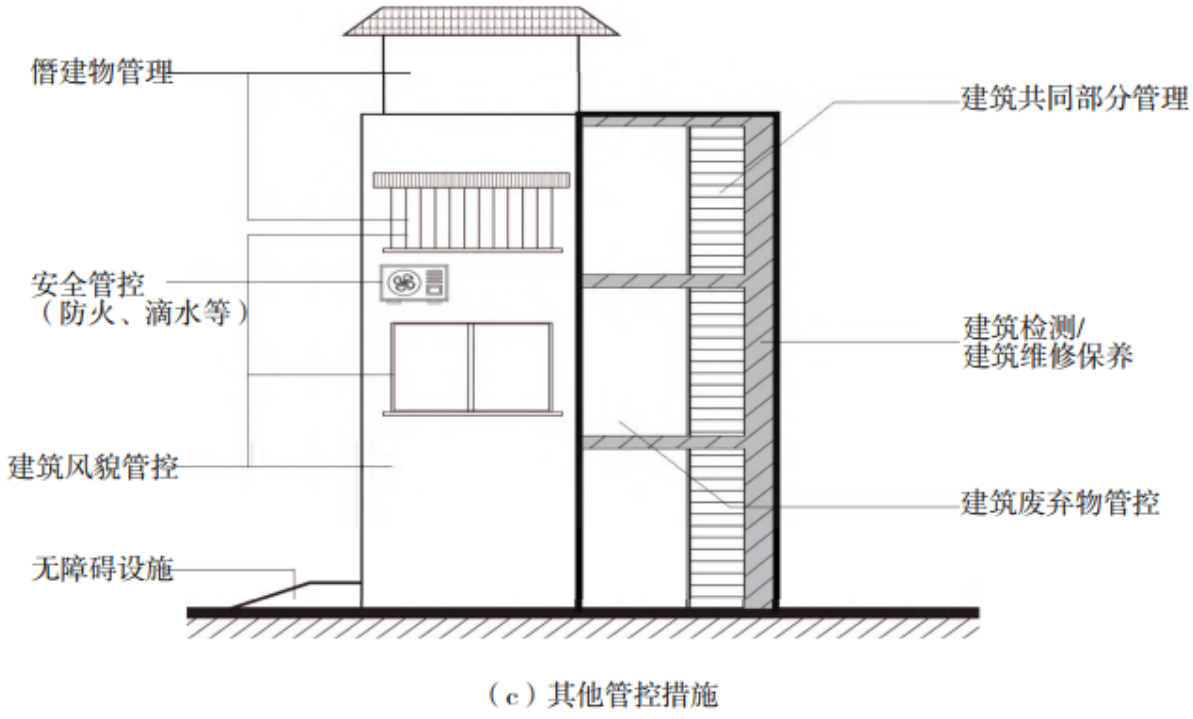

الشكل 4 رقابة متعددة الجوانب في أثناء تطوير المباني

3.5 تحسين الجودة وتحسين البيئة الحضرية القائمة

يظهر التحليل الإحصائي لاتجاهات الشؤون بحسب المرحلة (الجدول 1) اختلافات واضحة في تركيز كل مرحلة. فقد انتقلت أولويات التنمية من النظام السياسي وشؤون الأرض المتركزة في المرحلتين الأولى والثانية إلى قيادة التخطيط في المراحل اللاحقة، وبلغت شؤون التخطيط ذروتها في المرحلة الخامسة. ويؤكد تطور اتجاهات الشؤون تحول ماكاو نحو الدقة؛ إذ امتدت حاجات السكان من الإسكان الأساسي إلى مرافق الخدمات العامة والفضاءات العامة. كما يظهر طلب مواقف السيارات في زيادة الاهتمام بالنقل الداخلي في المرحلتين الرابعة والخامسة. وبالإضافة إلى ذلك، يعبر تزايد الاهتمام بالصحة العامة والوقاية من الكوارث عن اهتمام متصاعد بتجميل البيئة والسلامة في عملية البناء.

الجدول 1 أعلى ثمانية شؤون مفردة بحسب المرحلة

المرحلة	الأول	الثاني	الثالث	الرابع	الخامس	السادس	السابع	الثامن
المرحلة 1	النظام السياسي ٪9.51	الأرض ٪8.54	السكان ٪7.77	الإسكان ٪7.38	التجارة ٪6.99	النقل الداخلي ٪6.99	البيئة الجغرافية ٪6.60	التخطيط ٪6.21
المرحلة 2	النظام السياسي ٪9.41	التخطيط ٪9.05	الأرض ٪8.74	الإسكان ٪7.30	البيئة الجغرافية ٪6.84	الصحة العامة والوقاية ٪6.84	النقل الداخلي ٪6.02	الضرائب والتمويل ٪5.35
المرحلة 3	التخطيط ٪8.71	النظام السياسي ٪8.10	الأرض ٪7.86	الإسكان ٪6.77	البيئة الجغرافية ٪6.05	الصحة العامة والوقاية ٪6.05	اللوائح ٪5.32	الرقابة ٪5.32
المرحلة 4	التخطيط ٪9.85	الأرض ٪8.32	الصحة العامة والوقاية ٪7.00	الإسكان ٪6.75	البيئة الجغرافية ٪6.13	اللوائح ٪5.99	النقل الداخلي ٪5.20	الضرائب والتمويل ٪5.88
المرحلة 5	التخطيط ٪10.75	النقل الداخلي ٪7.68	الخدمات العامة ٪6.82	الفضاء العام ٪6.59	الصحة العامة والوقاية ٪6.19	اللوائح ٪5.99	الأرض ٪5.93	الإسكان ٪5.62

تبرز تناقضات الأرض بوضوح خاص ضمن الشؤون المركبة. وقد أصبح تحسين جودة الأرض القائمة - أي تطبيق استراتيجيات التجديد الحضري - من أفضل مسارات الحل. وفي التنمية المستقبلية لماكاو ينبغي تبني استراتيجيات تجديد نشطة لتفعيل الأراضي والكتل والمباني منخفضة الكفاءة، والاستجابة بدقة لحاجات المناطق المختلفة. وبالاستناد إلى أسس المراحل الأربع الأولى وترتيب شؤون المرحلة الخامسة، ينبغي أن تكون مجالات التخطيط، والنقل، ومرافق الخدمات العامة، والفضاء العام، والصحة العامة والوقاية من الكوارث، والإسكان، محاور رئيسة للتجديد والتحسين.

3.6 استبصار الطلب والطابع الاستشرافي لأفكار التخطيط

عبر مسار تطور ماكاو كله، امتد التعبير عن الطلب من الحكومة إلى المجتمع والجمهور في الإشراف والمشاركة في التنمية الحضرية. وقد أسهم الفاعلون المختلفون في التنمية بطرق مختلفة. فالحكومة تحملت مسؤوليات تراوحت من إدارة البيئة في الفترة البرتغالية إلى تحسين البنية التحتية اليوم؛ وقدم التجار الدعم المالي الضروري سعيًا إلى الربح؛ واستخدم الجمهور آليات التغذية الراجعة لتحديد الانحرافات وتصحيحها. وتشكل هذه الآليات متعددة الفاعلين والأبعاد نموذجًا حضريًا مميزًا لماكاو.

تظهر المراجعة الشاملة لشؤون ماكاو أن الفهم الدقيق للطلب والتعاون الوثيق بين المهنيين يبرزان بوضوح الطابع الاستشرافي لأفكار التخطيط الحديثة. ويتجسد ذلك ليس فقط في عدد من قرارات ضبط التجديد الإقليمي عام 1882 التي تشبه ممارسات اليوم، بل أيضًا في اعتماد الحكومة السريع للإسكان الاجتماعي وإجراءات التعقيم لمعالجة حاجات الإسكان والوقاية من الأوبئة خلال فترات الزيادة السكانية (الشكل 3). وقد حلت محل فلسفة التخطيط والعمل القائمة على إدراك الطلب بدقة وتنفيذ التدابير بسرعة، في الظاهر، خبرات خارجية، مما أنتج انطباعًا بتأخر التخطيط واضطراب النظام. غير أن الجذر الحقيقي هو الفهم المتقطع للتجربة التاريخية المحلية وإهمال مسار تطور ماكاو نفسه.

إن خطة استصلاح الأرض المرحلية المقترحة عام 1924 تكاد تطابق شكل ماكاو الحالي. وهي تكشف عن تحقيق تفصيلي في الأوضاع القائمة وعن توقعات للتنمية المستقبلية، وتثبت إلى حد ما أن ماكاو كانت قد طورت أفكارًا تخطيطية جوهرية ملائمة لحاجاتها. لذلك تحتاج ماكاو، وهي تستوعب الخبرات الخارجية، إلى إعادة فحص ذاتها ودمج التاريخ بالحداثة عضويًا لبناء مسارها الخاص في التنمية المستدامة.

4 استخلاص الخبرات وآفاق التطور الحضري في ماكاو

4.1 التقلب يولد اختراقات حضرية

تظهر تجربة ماكاو أن التقلب غالبًا ما ينطوي على فرص للاختراق. فكلما واجهت المدينة اضطرابات اجتماعية أو قيودًا اقتصادية، استطاعت استخدام هذه الصدمات لتحقيق تقدم قفزي والانتقال إلى مستوى أعلى من التنمية. ويكمن الأساس في التعامل مع التقلب بانفتاح وشمول، وتراكم الخبرة عبر التجريب النشط، لا عبر التمسك الصارم بالنماذج القائمة. وقد مكن هذا الروح الاستكشافية ماكاو من فتح مسار تنموي مميز في ظل قيود متعددة.

تظهر الخبرة التاريخية أن ماكاو تمتلك آلية حساسة للاستجابة للأزمات. فعند مواجهة التقلب، كانت الحكومة قادرة على بناء أطر سياسية بسرعة، وتوجيه اتجاه التغير عبر تحسين اللوائح، ومنع المخاطر. وقد ساعدت آليات الاستجابة الدقيقة ماكاو على فتح مجالات تنمية جديدة في مراحل عدة. غير أن طول إجراءات الموافقة السياسية في السنوات الأخيرة أضعف فاعلية هذه الآلية التي كانت فعالة. لذلك ينبغي للحكومة والمهنيين أن يدركوا التقلبات بدقة، وأن يعالجوا تفاصيل ومشكلات التنمية في الوقت المناسب وبكفاءة لدعم التطور الحضري.

في بيئة المنافسة الحضرية الشديدة اليوم، لا تلائم الاستراتيجيات المفرطة في الحذر متطلبات التغير. ولا يمكن للمدينة أن تتجاوز حدودها القائمة وتحقق تطورًا قفزيًا إلا بالحفاظ على مرونة مؤسسية، وبموازنة ضبط المخاطر مع حيوية الابتكار في عملية تعديل ديناميكية. ويتطلب ذلك رؤية استشرافية من صناع السياسات وحكمة تكيفية من نظام الحوكمة الحضرية.

4.2 منع تأجيل التناقضات وتصلبها

تقيد قضايا الأرض تطور ماكاو بشدة[5]. وقد اعتمدت المدينة أساسًا على استراتيجيتين: استصلاح الأرض وتحسين استخدامها. واعتُبر الاستصلاح حلًا أمثل للتنمية الحديثة والمعاصرة. غير أن الاعتماد المفرط عليه أدى أيضًا إلى تأجيل تحسين البيئة الداخلية زمنًا طويلًا. فقد تراكمت مشكلات مثل فحص المباني والبنية التحتية حتى صارت صعبة العكس، وتقلصت خيارات الحل، مما أدى إلى استجابات نمطية. كما أضعف مسار التنمية الواحد تنوع البناء الحضري ومرونته.

لذلك ينبغي منع التناقضات من أن تعالج متأخرة. فعندما تظهر المشكلات في بدايتها، يجب اتخاذ تدابير استباقية لمعالجتها بدل السماح لها بالتراكم والاستقرار حتى تصبح مزمنة وصعبة التجاوز. وينبغي دفع حل القضايا ذات الصلة، وتجنب الوقوع في روتين ثابت لمعالجة مشكلات المدينة، والسعي إلى مساعدة مهنية، وحل التناقضات من زوايا ومستويات متعددة بطرق متنوعة وموجهة، بما يحسن جودة التنمية الحضرية بصورة شاملة ويحدد الحل الأمثل.

4.3 تحسين اللوائح لتوجيه التنمية

يكمن أساس التطور الحضري في ماكاو في التنسيق بين الأفكار المتقدمة والنظام التنظيمي المتين. فاللوائح، باعتبارها حجر أساس للمدينة، توفر إطارًا معياريًا للتنمية، لكن القيود المفرطة قد تحد من الابتكار. ففي الأحياء القديمة في ماكاو، مثلًا، حافظت اللوائح الصارمة بفاعلية على الطابع التاريخي، لكنها حدت أيضًا من التجديد في المناطق المحيطة.

لذلك ينبغي للبناء الحضري أن يبحث عن توازن بين القاعدة والمرونة. فهو يحتاج إلى استخدام اللوائح لحماية النظام التنموي، مع الإبقاء على مساحة مرنة لخلق سمات حضرية مميزة. ويتضمن هذا التوازن الديناميكي ثلاثة جوانب: أولًا، ينبغي أن تضع اللوائح أطرًا أساسية وأن تتجنب التفصيل المفرط الذي يقيد التنوع. ثانيًا، ينبغي أن يتضمن التنفيذ آليات تغذية راجعة تعدل التفاصيل وفق التطور الفعلي. ثالثًا، ينبغي للمشاركة العامة أن تشكل حلقة رقابة تتيح تفاعلًا إيجابيًا بين تحسين اللوائح والتجديد الحضري. وبوسع نموذج «قيود إطارية + تنفيذ مرن» أن يحمي استمرارية الثقافة الحضرية وأن يحفز إمكانات الابتكار.

4.4 التركيز على أقطاب القيد في البناء

في البناء الحضري، تشكل نقاط القوة والعناصر القابلة للتحسين غالبًا أساس التنمية. غير أن هذا الأساس قد يتحول أيضًا إلى أكبر قطب قيد. وفي ماكاو يتمثل قطب القيد الحضري تحديدًا في مستوى المبنى؛ فهو بدأ مبكرًا وطور إطارًا تنظيميًا كاملًا، ثم أصبح إطارًا صلبًا لتنمية المناطق والكتل. ورغم أن هذه الأقطاب تحد من إمكانات التوسع الحضري، فإنها تطرح على الباحثين في التخطيط سؤالًا مهمًا: كيف يمكن تفعيل طاقات المدينة داخل إطار قائم؟

إن قطب القيد هو في الوقت نفسه مقياس لحدود التنمية ومرجع للابتكار. وعندما تضطر المدينة إلى التعامل مع أقطاب القيد، غالبًا ما تظهر حلول ابتكارية متعددة الأبعاد. فمن خلال تطوير الفضاء ثلاثي الأبعاد والاستخدام الوظيفي المركب، يمكن رفع قيمة الفضاء المحدود ودفع المدينة نحو مسار أكثر كثافة وذكاء.

4.5 تطور الطلب نحو مزيد من الدقة

شهد التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو تحولًا واضحًا من التنمية التي تقودها الحكومة إلى التوجه بحاجات السكان. ولا يظهر هذا التحول في تغير استراتيجيات استخدام الأرض فحسب، بل يتجسد أيضًا في التحسن المستمر في جودة المدينة: من التوسع المبكر عبر استصلاح الأرض لتجاوز عنق الزجاجة في الموارد، إلى التحسين الدقيق للفضاء الداخلي وبناء بيئات حضرية متمحورة حول الإنسان.

ومع ازدياد دقة الطلب، يتحول دور الحكومة من صانع قرار وحيد إلى منسق للحاجات. فعليها أن تدخل المجتمعات، وتقترب من الحياة اليومية، وتفهم بدقة الحاجات الفعلية للسكان. ففي تجديد حي سان كيو، على سبيل المثال، ساعد المخططون على ترجمة مطالب السكان إلى لغة مهنية ونقلها إلى الحكومة، فشكلوا توصيات سياساتية قابلة للتنفيذ. وعبر مسار «التوجه بالطلب - الترجمة المهنية - تنفيذ السياسات»، يمكن اختيار مسارات تحسين تطابق حاجات السكان وواقع التنمية الحضرية، بما يحقق تعايشًا منسجمًا بين المدينة وسكانها.

4.6 التخطيط الاستشرافي المرحلي

برزت أفكار التخطيط الاستشرافي بوضوح في التطور الحضري لماكاو. وعلى الرغم من أن فهمها الكامل في وقتها كان صعبًا، فإن التخطيط والتنفيذ المرحليين حسّنا تدريجيًا البنية العامة للتنمية الحضرية. فالتنفيذ على مراحل يتيح للمجتمع والحكومة رؤية النتائج بسرعة، ويتجنب خيبة الأمل وفقدان الثقة وتباعد الأهداف الناجم عن الدورات الطويلة، كما يسهل التصحيح في الوقت المناسب والتعديل المرن لاتجاه التنمية، بما يضمن تقدمًا علميًا ومستدامًا.

كما يمكن لنموذج التخطيط الاستشرافي المرحلي أن يخفف الضغط المالي، ويعزز التنسيق العام لأموال التنمية الحضرية، ويتيح دورانًا أكثر كفاءة وعقلانية لرأس المال.

5 خاتمة

حلل هذا البحث الدراسات المتعلقة بالتطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو من زوايا متعددة، منها النظام السياسي، والفضاء الحضري، والبناء، وأفكار التخطيط. وتوصل إلى أنه رغم ملاحظة الباحثين لتأثير الأفكار الخارجية في التخطيط الحديث في ماكاو، فإن هذا التأثير لم ينعكس في تقسيم مراحل التطور الحضري. كما أن التقسيمات المختلفة القائمة لا تقدم بدقة خصائص ماكاو ومنطقها الداخلي في الفترات التاريخية المختلفة.

يكشف إدخال مخطط «النهر الموضوعي» بصورة فعالة اتجاهات الشؤون الحضرية، ويحدد المراحل المختلفة للتطور. ويمكن تقسيم التطور الحديث والمعاصر في ماكاو إلى خمس مراحل: تطبيق الحكم الاستعماري، وترسيخ الحكم الاستعماري، وتطور المنطقة المحايدة، والحكم الذاتي الإقليمي الواسع، والمرحلة الجديدة لمبدأ «دولة واحدة ونظامان». ويوضح هذا التقسيم المنطق الداخلي لتطور ماكاو، ويبرز الدور التأسيسي للنظام البرتغالي للتخطيط بعد نقله إلى ماكاو، ويصحح الميل الشائع إلى اعتبار احتلال كولوان عام 1911 أو الخطة العامة لماكاو عام 1912 العقدتين الرئيسيتين للتقسيم المرحلي.

ومن خلال ستة أبعاد - السكان، والأرض، واللوائح، والمباني، والبيئة، والطلب - يصف البحث التطور الحضري الحديث والمعاصر في ماكاو، ويبين أن تغير السكان يعكس التقلب السياسي؛ وأن توسع الأرض يسجل تطور النسيج الحضري؛ وأن سلطة القواعد القانونية تضمن تطورًا حضريًا منظمًا؛ وأن الأهداف الحضرية انتقلت من المباني المفردة إلى التكامل الإقليمي؛ وأن جودة البيئة القائمة تحسنت باستمرار؛ وأن التخطيط الاستشرافي المستند إلى استبصار الطلب اخترق العملية كلها. وبناءً على هذه المنطقات التنموية، يلخص البحث خبرات عدة: التقلب يولد اختراقات حضرية؛ وينبغي منع تأجيل التناقضات وتصلبها؛ وينبغي تحسين اللوائح لتوجيه التنمية؛ ويجب إدراك أقطاب القيد في البناء؛ ويتطور الطلب نحو الدقة؛ ويعد التخطيط الاستشرافي المرحلي ضروريًا. ولا تدعم هذه الخبرات التنمية المستدامة في ماكاو فحسب، بل تقدم أيضًا مرجعًا وإلهامًا لمدن أخرى تبحث عن فرص تنموية في ظل التقلب.

غير أن هذا البحث له حدود. فاعتماد تحليل «النهر الموضوعي» على كميات كبيرة من البيانات الدقيقة يجعل غياب السجلات في بعض السنوات مؤثرًا لا محالة في الدقة وفي الفهم الدقيق لقوانين التطور الحضري. وفي الوقت نفسه، يعد التصنيف الواضح والمفصل للشؤون الحضرية شرطًا حاسمًا لهذا المنهج. ويمكن للبحوث اللاحقة استخدام الذكاء الاصطناعي لتحسين نظام تصنيف الشؤون الحضرية المركبة، بما يساعد على فهم مسارات التطور الحضري بصورة أشمل، ويوفر دعمًا نظريًا أقوى لدراسات التنمية الحضرية.

الملاحظات

① يشير ذلك إلى الركود الاقتصادي في ماكاو في ظل ضوابط التجارة الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين.

② السطح غير المنفذ هو سطح أرضي مغطى بمواد لا تسمح بالنفاذ، وهو من أبرز مؤشرات التحضر.

③ «Sa Zhi Qi» شكل خاص من العقود الخاصة في ماكاو يتعلق بمعاملات الأرض والسكن. وقد كان دليلًا على معاملات الأرض الشعبية في عهد أسرة تشينغ وما قبلها، وهو إشكالية تاريخية مميزة في ماكاو.

④ كان التجديد الحضري يسمى سابقًا في ماكاو «إعادة تطوير الأحياء القديمة» أو «تنشيط الكتل»، ويطلق عليه اليوم «التجديد الحضري».

⑤ تشمل المواد التاريخية ذات الصلة أيضًا أحداث Macao Memory واللوائح والسياسات الصادرة عن مكتب الطباعة في ماكاو.

⑥ في فترة حكومة ماكاو البرتغالية، لم تكن «الصحة العامة» تعني الوقاية من الأوبئة والرعاية الطبية فحسب، بل شملت أيضًا إدارة النظافة العامة والشؤون البلدية، أي نظافة المدينة.

⑦ يشير ذلك إلى سحب «النظام القانوني لإعادة تطوير الأحياء القديمة» عام 2013، بسبب عدم تنسيقه بصورة مناسبة مع قانون الأرض، وقانون التخطيط الحضري، وقانون حماية التراث الثقافي، ولوائح أخرى.

⑧ في ماكاو وهونغ كونغ تسمى المباني غير المرخصة «منشآت غير قانونية» أو «منشآت غير مرخصة»، وتشمل المظلات المضافة وتوسعات الشرفات.

المراجع

[1] LIU Xianjue, XUAN Feng. لمحة عامة عن التطور الحضري في ماكاو[J]. Huazhong Architecture, 2002(6): 92-96.

[2] LIU Minshi. بحث حول المشاركة العامة في التجديد الحضري في ماكاو[D]. Huaqiao University, 2020.

[3] ZHENG Jianyi. بحث في تطور الشكل الحضري للميناء الداخلي في ماكاو[D]. South China University of Technology, 2017.

[4] YANG Yan.)بحث في التخطيط والبناء الحضريين الحديثين في ماكاو[D]. Wuhan University of Technology, 2009.1999-1845(

[5] YAO Zhihao, HUANG Ziwei. التقدم بين القيود :تطور الحوكمة ومعضلات تنفيذ التجديد الحضري في منطقة ماكاو الإدارية الخاصة[J]. Urban Planning International, 2024, 39(5): 80-88.

[6] ZHENG Jianyi, TIAN Yinsheng. مراجعة البحوث في البر الرئيسي حول التخطيط الحضري في ماكاو منذ العودة[J]. Architecture & Culture, 2015(6): 12-17.

[7] LOU Shenghua. بناء النظام التشاركي المؤسسي في ماكاو[J]. Administration, 2004.

[8] WU Zhiliang, CHEN Xinxin. دراسات في السياسة والمجتمع في ماكاو[M]. Macao Adult Education Association, 2000.

[9] YAN Zhongming. تاريخ حضري لنموذج النواتين والثلاث جماعات[D]. Jinan University, 2005.

[10] TONG Qiaohui, SHENG Jianrong. دراسة حول عملية تطور التخطيط الحضري في ماكاو[J]. Journal of Wuhan University (Engineering Science), 2005(6): 115-119.

[11] LIU Qizhi, ZHU Zhibing. دراسة مقارنة بين نظامي التخطيط الحضري في ووهان وماكاو[J]. City Planning Review, 2011, 35(5): 45-50.

[12] TONG Qiaohui. بحث في البيئة الحضرية والسياق الثقافي في ماكاو[D]. Southeast University, 2005.

[13] YANG Ruwan, JI Weiwen. تأثير الحوكمة الحضرية في ماكاو في التنمية والتخطيط الحضريين[J]. Journal of Urban and Regional Planning, 2011, 4(3): 100-118.

[14] LIN Guangzhi, LI Chao. البنية السكانية والتحول الاقتصادي :دراسة حالة ماكاو الحديثة[J]. Journal of South China Normal University (Social Sciences), 2017(1): 13-26.

[15] KUROISHI I E. بناء الأرض المستعمَرة :منظورات متشابكة لشرق آسيا حول الحرب العالمية الثانية[M]. 1st ed. London: Routledge, 2014.

[16] CALADO M, MENDES M, TOUSSAINT M. ماكاو :مدينة الذاكرة عند مصب نهر اللؤلؤ[J]. Macau Review of Culture, 1998: 36-37.

[17] SIMPSON T. ماكاو، عاصمة القرن الحادي والعشرين؟[J]. Environment and Planning D: Society and Space, 2008, 26(6): 1053-1079.

[18] BIAN Lanchun, WANG Xiaoting, LU Da, et al. الخصائص المورفولوجية المكانية واستراتيجيات الضبط في ماكاو[J]. Journal of Urban and Regional Planning, 2019(3): 86-99.

[19] CHEN Zhenguang. التطور الحضري في ماكاو :التحديات والفرص[J]. City Planning Review, 2014, 38(S1): 31-36.

[20] HUANG Shixing. الإدارة المساحية واستخدام الأرض في ماكاو[D]. South China Normal University, 2003.

[21] YUAN Zhuangbing. تحليل تطور الشكل المكاني الحضري في ماكاو وعوامله المؤثرة[J]. City Planning Review, 2011, 35(9): 26-32.

[22] TAN Zongbo, WANG Yue, ZHANG Yimeng, et al. مراجعة واستشراف البحوث المتعلقة بالتطور المكاني في ماكاو[J]. Journal of Urban and Regional Planning, 2019(3): 1-18.

[23] ZHANG Song, ZHEN Xuefeng. مناقشة استراتيجيات حماية المشهد الحضري التاريخي في ماكاو[J]. City Planning Review, 2014, 38(S1): 91-96.

[24] HE Wenqian. بحث حول الفضاء السردي الحضري في شبه جزيرة ماكاو[D]. Central South University, 2012.

[25] LI Qinru. التطور المورفولوجي والتحول الاجتماعي للفضاء الساحلي في ماكاو الحديثة (1850-1936)[J]. South Architecture, 2023(11): 13-22.

[26] CHEN Mingfa, LIU Fan, ZHAO Yaolong, et al. – توسع وتطور تدرجي للأسطح غير المنفذة في تكتل مدن منطقة خليج قوانغدونغ هونغ كونغ–ماكاو الكبرى، 1987-2017[J]. Journal of Geo-information Science, 2021, 23(3): 443-455.

[27] CHEN Jiahui. بحث حول إصلاح قانون الأرض في ماكاو[D]. China University of Political Science and Law, 2011.

[28] LIU Yongde. تحليل قانوني لـ «Sa Zhi Qi» في ماكاو[D]. Huaqiao University, 2011.

[29] WU Qi. بحث حول آلية الحفاظ على الأحياء القديمة في ماكاو وتنشيطها من منظور حقوق الملكية[D]. Harbin Institute of Technology, 2017.

[30] MO Xiaoye. التحول الحضري في ماكاو من خلال السجلات المحلية المصورة[J]. South Architecture, 2012(1): 22-27.

[31] GUO Shuling. التوسع الحضري وبناء الشوارع في شبه جزيرة ماكاو الحديثة (1849-1911)[D]. Jinan University, 2012.

[32] FENG Chen, WANG Haofeng, RAO Xiaojun. دراسة حول تطور الشكل المكاني الحضري في شبه جزيرة ماكاو[J]. South Architecture, 2012(4): 64-72.

[33] ZHAO Yunqiang. دراسة حول تطور الحزام الهامشي للمدينة البرتغالية في شبه جزيرة ماكاو[D]. Huaqiao University, 2018.

[34] HE S Y. استكشاف ظاهرة الحزام الهامشي في بيئة صينية–برتغالية: حالة ماكاو[J]. Urban Morphology, 2018, 22(1): 35-52.

[35] WANG Yuchen, TAN Zheng. دراسة حول تطور الشكل الحضري للميناءين الداخلي والخارجي في شبه جزيرة التاريخ والتجديد: ماكاو[C]//Architectural History Branch of the Architectural Society of China. Proceedings of the 2019 Annual Conference and Symposium of the Architectural History Branch, 2019.

[36] LI Zhichao, JU Dedong. الاقتراب من المركز التاريخي لماكاو: تكامل القديم والحديث مع حيوية مستدامة[J]. China News Release (Practice Edition), 2024(12): 21-24.

[37] WU Yao. بحث في التحول المعماري في ماكاو الحديثة المتأخرة[D]. Southeast University, 2004.

[38] ZHAI Leilei, YU Yanqiao, XIA Haishan. خصائص وتطور حماية التراث المعماري في ماكاو[J]. Huazhong Architecture, 2020, 38(11): 147-151.

[39] ZHAO Shuhong. لمحة عن تطور العمارة الحديثة في ماكاو[J]. Huazhong Architecture, 2007(8): 211-214.

[40] CHEN Yu. مسار تطور العمارة الحديثة والمعاصرة في ماكاو[J]. World Architecture, 1999(12): 21-26.

[41] ZENG Lei. الأنماط المعمارية الحديثة والمعاصرة في ماكاو وتأثيرها في واجهات السكن الحديث[J]. Urbanism and Architecture, 2022, 19(9): 109-111.

[42] KWAN W S. عمارة ماكاو: تكامل التأثيرات الصينية والبرتغالية[M]. Imprensa Nacional, 1970.

[43] GAO Wuzhou. بحث في تطوير السكن عالي معامل الكثافة في ماكاو استنادًا إلى نموذج القيمة السكنية[D]. South China University of Technology, 2014.

[44] PAN Yuhang. تطور عمارة بيوت المتاجر في ماكاو من منظور المورفولوجيا الحضرية[D]. Shenzhen University, 2022.

[45] DAI Jinhui, WU Jianqin. التصميم الحضري وتجديد شبه جزيرة ماكاو[J]. Urbanism and Architecture, 2010(2): 20-22.

[46] ZHENG Guanwei. تطور التخطيط الحضري في ماكاو واتجاهات الاستمرارية[J]. Architectural Journal, 1999(12): 6-10.

[47] LIANG Songyan, HE Peiji. تاريخ التخطيط الحضري في ماكاو وآفاق الخطة العامة لماكاو[J]. City Planning Review, 2014, 38(S1): 60-63.

[48] FU Xuan. بحث في العمارة السكنية الحديثة في ماكاو من منظور التكامل الصيني–الغربي[D]. Huaqiao University, 2017.

[49] WU Yao, PINHEIRO F V. استكشاف أولي للآلية الداخلية لتطور العمارة الحديثة في ماكاو[J]. Creativity and Design, 2011(2): 35-37.

[50] XING Rongfa. تطور العمارة الحضرية في ماكاو في القرن التاسع عشر[D]. Jinan University, 2001.

[51] GUO Zhan. التخطيط الحضري في ماكاو المتصل بالتراث العالمي[J]. City Planning Review, 2014, 38(S1): 86-90.

[52] WEN Ya. مراجعة مسار تطور نظام التخطيط الحضري في ماكاو وخصائصه[J]. City Planning Review, 2014, 38(S1): 23-30.
[53] ZHAO Songjie. انتشار أفكار التخطيط الحضري الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتحضر شبه جزيرة ماكاو[J]. Global History Review, 2019(2): 118-131.
[54] JING Tao. دراسة حول تطور منطقة خليج قوانغدونغ–هونغ كونغ–ماكاو الكبرى من منظور مكاني[D]. South China University of Technology, 2021.
[55] WU Junjiang. بحث في التنمية المنسقة لتكتل مدن منطقة الخليج الكبرى في إطار »دولة واحدة ونظامان«[D]. Southwestern University of Finance and Economics, 2021.
[56] CHEN Weixin. نقاش مفاهيمي حول التطور الحضري والتخطيط في ماكاو ضمن عملية تكامل التنمية الإقليمية[C]//Urban Planning Society of China. Planning Innovation: Proceedings of the 2010 China Annual National Planning Conference. Chongqing: Urban Planning Society of China, 2010.
[57] CUI Shiping, ZHAO Bingshi. بحث في مخطط التخطيط الحضري لماكاو في القرن الحادي والعشرين[R]. 1999.
[58] WU Zhiliang, TANG Kaijian, JIN Guoping. حوليات ماكاو، المجلد 4 :أواخر أسرة تشينغ (1845-1911)[M]. Guangzhou: Guangdong People’s Publishing House, 2009.
[59] WU Zhiliang, TANG Kaijian, JIN Guoping. حوليات ماكاو، المجلد 5 :فترة الجمهورية (1912-1949)[M]. Guangzhou: Guangdong People’s Publishing House, 2009.
[60] TIAN Yu. تجميع تقارير هندسية حول اللوائح والأوامر الحضرية في ماكاو الحديثة[M]. University of Macau, 2014.
[61] HU Yalin. التوسع الحضري وبناء الشوارع في شبه جزيرة ماكاو (1912-1999)[D]. Jinan University, 2012.
[62] FANG Yu, BAI Jing, LI Linqing, et al. استكشاف مسارات تعميق التعاون بين قوانغدونغ وماكاو عبر دمج جماعات متعددة: دراسة حالة هنغتشين[J]. Urban Planning Forum, 2022(S1): 48-54.
[63] LI Xiaoli. تطور البنية المكانية لتكتل مدن دلتا نهر اللؤلؤ الكبرى[J]. Urban Planning Forum, 2008(2): 49-52.
[64] الخطة العامة لتنمية منطقة خليج قوانغدونغ–هونغ كونغ–ماكاو الكبرى[M]. Beijing: People’s Publishing House, 2019.
[65] German Energy Agency (DENA). خارطة طريق إزالة الكربون في قطاع المباني والبناء في منطقة خليج قوانغدونغ–هونغ كونغ–ماكاو الكبرى بالصين[R]. 2023.
[66] Statistics and Census Service. 2022 الكتاب السنوي الإحصائي لماكاو[M]. Macao: Statistics and Census Service, 2022.
[67] Statistics and Census Service. 1996 التعداد الجزئي لعام[R/OL]. Macao: Statistics and Census Service, 1996 [2023-12-01]. http://www.dsec.gov.mo/Statistic.aspx?NodeGuid=8d3d6e9b-5a4b-4c1c-9e7f-3e5b6d7f8e9a.
[68] LI Jiaxin, YANG Fan. الإدماج متعدد الثقافات في الفضاءات العامة المفتوحة الحضرية: دراسة حالة ماكاو[J]. Housing Science, 2024, 44(6): 29-39.
[69] Government of the Macao Special Administrative Region. النظام القانوني للتجديد الحضري في ماكاو[R]. Macao: Government of the Macao SAR, 2022.
[70] Government of the Macao Special Administrative Region. قانون حماية التراث الثقافي[R]. Macao: Government of the Macao SAR, 2013.
[71] Statistics and Census Service. 2023 إحصاءات المباني السكنية لعام[R]. Macao: Statistics and Census Service, 2023.
[72] Government of the Macao Special Administrative Region. قانون إدارة الأجزاء المشتركة في مباني الملكية المشتركة (القانون رقم 14/2017)[S]. Macao: Government of the Macao SAR, 2017.
[73] Cartography and Cadastre Bureau. شبكة المعلومات المساحية في ماكاو[EB/OL]. Macao: Cartography and Cadastre Bureau, 2024 [2024-01-20]. https://www.dscc.gov.mo.
[74] GAO Wuzhou. تحليل القيود التي تفرضها لوائح البناء في ماكاو على المساحة السكنية القابلة للبناء وعلى الشكل المعماري[J]. Huazhong Architecture, 2014, 32(6): 7-12.
تاريخ الاستلام بعد المراجعة: 02-2025.

ترجمة بمساعدة الذكاء الاصطناعي